

قصور منطقة الجلفة في القرنين 17 - 18 من خلال رحلات الحج المغربية ورحلات أخرى

Ksars of Djelfa Region in the 17th and 18th centuries

Through Moroccan Hajj travel accounts and other travels .

عبد الفتاح بن جدو(*)

جامعة زيان عاشور-الجلفة ، benjeddou2511@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/11/ 07 تاريخ القبول: 2025/12/ 05 تاريخ النشر: 2025/12/ 22

تعد منطقة الجلفة إحدى الأقاليم الهامة في القطر الجزائري ، نظرا لما تتمتع به من موقع استراتيجي مميز جعلها تحتل مكانة هامة منذ القدم ، حيث مرّت المنطقة بعدة محطات تاريخية منذ ما قبل التاريخ إلى الوقت الراهن ، تشهد على ذلك الآثار الكثيرة الباقية إلى يومنا هذا ، فمن النقوش الحجرية التي تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ ، إلى قبور فجر التاريخ الميقاليتية السلتية ، ثم الآثار الرومانية والبيزنطية وصولا إلى الفترة الحديثة التي عرفت نشأة وظهور العديد من المراكز العمرانية ، منها التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا حيث ازدهرت وتطورت وتوسعت كثيرا على غرار مدينة الجلفة عاصمة الولاية ، ومنها ما اندثرت وهُجرت وصارت أثرا بعد عين ليبقى ذكرها فقط ، لكن المشكل الحقيقي الذي يتعرض له الدراسات لتاريخ المنطقة هو نقص التوثيق والمؤلفات .

وسنحاول من خلال هذا المقال إجراء دراسة وجيزة عن نشأة وتطور أهم القصور والمراكز العمرانية بمنطقة الجلفة خلال القرنين 17-18 وذلك بالاعتماد أساسا على رحلات الحج المغربية بالإضافة إلى رحلات أخرى غير حجية .

الملخص

الكلمات الدالة: الجلفة، قصور، عمران، حواضر، رحلات الحج، التاريخ الحديث .

Abstrac:

The Djelfa region occupies a distinguished position in Algeria due to its strategic location, which has granted it enduring historical significance. Over the centuries, it has experienced successive cultural and political phases: from prehistoric rock engravings and megalithic tombs, to Roman and Byzantine remains, and later the emergence of modern settlements. Some of these centers—such as

* المؤلف المرسل.

the city of Djelfa, now the provincial capital—have continued to grow and flourish, while others declined and eventually disappeared, leaving behind only traces in memory. A persistent challenge in studying the region's past is the scarcity of documentation and specialized scholarship. This article seeks to provide a concise examination of the emergence and development of major urban centers in Djelfa in the 17th and 18th centuries . The study draws on a corpus of Moroccan Hajj travel accounts and other travels .

Keywords: Djelfa; Ksars; Urban centers; Urbanisme; Moroccan Hajj; Modern history

1. مقدمة:

تعد منطقة الجلفة¹ إحدى المناطق الموعلة في القدم والضاربة بجذورها في أعماق التاريخ كما أسلفنا ، فقد كانت منذ ما قبل التاريخ موطنًا للإنسان تشهد على ذلك النقوش الحجرية الكثيرة المنتشرة بها خاصة بالأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من المنطقة على غرار عين الإبل ، زكار ، مسعد ، مجبارة ، عين الناقية ، تعظمت وغيرها ، وقد أحصى كل من هوارد و أيار (Huard et Allard) سنة 1976 حوالي 43 موقع للنقوش الحجرية التي تعود لتلك الحقبة² ، وربما فقد البعض منها قبل هذا الجرد .

وفي المقال الذي كتبه روبرو (Reboud) عام 1856 أشار إلى أن الباحث في تاريخ وآثار منطقة الجلفة يمكنه أن يجد ثلاثة مواضيع أساسية للدراسة ، الأول هو الآثار الرومانية وهي قليلة من حيث العدد لكنها هامة جدا من حيث الدراسة حيث تحدد أقصى توسع للرومان في الجنوب ، الثاني هو القبور الميقاليتية التي تعود على الأرجح إلى حقبة فجر التاريخ رغم أن روبرو تردد في تحديد تاريخها وأصولها ، أما الموضوع الثالث فهو آثار القصور والقرى المبنية من طرف الأهالي والمنتشرة كثيرا بالمنطقة

، ومن الغريب أن نجد روبرو يهمل الحديث هنا عن محطات النقوش الحجرية رغم كثرتها ووضوحها الشديد ، ويمر مباشرة للحديث عن قبور فجر التاريخ و الآثار الرومانية³ .

ورغم هذا الإرث التاريخي والحضاري الكبير الذي تتركه به المنطقة إلا أننا نجد تغيب عن الساحة السياسية خلال العصر الوسيط فلا نكاد نجد لها ذكرا في المصادر التاريخية ، كما أن كتب الرحالة والجغرافيين لا تشير غالبا إلى وجود أي مدن وحواضر أو أي نوع من التجمعات السكانية هنا ، رغم أن الثابت في التاريخ أن المنطقة عرفت قدوم موجات متتالية من قبائل بني هلال وبني سليم منذ منتصف القرن 5 هـ وأنها استوطنت هنا ، فأصول أغلب سكان المنطقة خاصة الصحاري وأولاد نايل تعود لهاته القبائل ، فهل أن المنطقة لم تعرف أي تجمعات سكانية خلال العصور الوسطى وبداية العصر الحديث ، أم أن الرحالة والجغرافيين الذين زاروا المنطقة أهملوا الحديث عنها لقلة أهميتها.

2. نظرة عامة على عمران منطقة الجلفة في التاريخ الحديث :

ويبدو من خلال إلقاء نظرة خاطفة على بعض المصادر خاصة كتب الرحلة أن كلا الاحتمالين السابقين وارد لكن الأول أقرب للصواب والمنطق ، فالرحالة والبلدانيون الذين وصفوا الجزائر لم يتعرض أغلبهم لذكر أي مدن أو قرى بالمنطقة ، ومن غير المعقول أن يهملوا جميعا ذكر هذه المدن إلا إذا كانت غير موجودة فعلا ، أو أنها كانت مجرد بلدات وقرى صغيرة ليس بها ما يجذب الاهتمام ، وبإطلالة سريعة نجد أن كل من الوزان ومارمول في القرن 16 لم يشيرا إلى وجود أي مدن وحواضر بالمنطقة -إلا إشارة غامضة عند الأخير سنذكرها لاحقا- رغم أنهما تعرضا لوصف أماكن قريبة منها ومحيطها بها على غرار المدينة ، المسيلة و بسكرة ، كما أن هايدو والتمكروتي لم يشيرا أيضا في نهاية القرن 16 إلى أي مدن أو بلدات بالمنطقة ، وابتداء من القرن 17 سنجد أن الرحلات الحجية للمغاربة شكلت مادة علمية لا بأس بها لوصف بعض المناطق بالجلفة ، وقد ذكر العياشي في رحلته الحجية منتصف القرن 17 موضعين في منطقة الجلفة بطريقة عابرة فقط هما عبد المجيد⁴ ودمد⁵ ، رغم أنه مرّ في رحلته بالمنطقة ذهابا وإيابا وذكر أماكن قريبة مثل بسكرة ، أولاد جلال ، عين ماضي والأغواط ، وابتداء من القرن 18 سنجد مجموعة من رحلات الحج المغربية تعرج على المنطقة وتصف عددا من القرى والبلدات

والأماكن بها ، كما سنجد رحلات أخرى غير رحلات الحج منها المحلية والأجنبية تتضمن معلومات أخرى عن المنطقة ، أما في القرن 19 فإننا سنجد بعض مؤلفات المستكشفين الفرنسيين تتضمن تفاصيل أدق وأهم عن المراكز العمرانية بالجلفة .

ومن خلال هذا التقديم يمكننا القول أن أولى المراكز العمرانية الحديثة بالمنطقة بدأت بالنشأة والظهور مع مطلع القرن 17 أو على أكثر تقدير مع نهاية القرن 16 ، وهذا التقدير تدعمه أيضا الأدلة المادية فإننا لا نجد بمدن الولاية أية آثار مباني ومنشآت تعود إلى ما قبل الفترة المذكورة ، بل إننا لا نجدها إلا مع بداية القرن 19 تقريبا ، وحتى المساجد العتيقة والأقدم بالمنطقة يعود إنشاؤها إلى بداية النصف الثاني من القرن 19 وهي المساجد التي بنيت من طرف الفرنسيين على غرار المساجد العتيقة لكل من مسعد ، الجلفة ، عين معبد وزينية .

بقي أن نتساءل الآن عن سبب خلو هذا الإقليم من أي مظهر من مظاهر العمران والعمارة تقريبا قبل القرن 16 رغم أن مقوماته الطبيعية تؤهله أن يصبح فضاء للعديد من المدن والقصور ، وللإجابة عن هذا التساؤل يجدر بنا أن نلقي نظرة عن أصول سكان المنطقة ونمط معيشتهم بوجه خاص ، فإذا علمنا أن أغلب سكان المنطقة من القبائل العربية التي قدمت في هجرات متوالية بداية من منتصف القرن 5 هـ واستقرت هناك ، وأن مهنتهم الرئيسية التي تتوقف عليها أرزاقهم ومعيشتهم كانت الرعي وتربية الأنعام خاصة الغنم والإبل ، تتضح الصورة أمامنا جلية في أن نمط معيشة السكان والذي يتميز بالتنقل الدائم والمستمر في رحلة البحث عن المرعى والكأى يبدو السبب الرئيسي في عدم ظهور أي مراكز عمرانية حتى وقت متأخر ، فمن المعلوم أن بيوت البدو الرُّحَّل هي خيامهم التي يحملونها معهم يوم ظعنهم وترحالهم ، فمن غير المعقول أن يفكر الإنسان في بناء بيت ثابت ومستقر إذا كان يعلم أنه هو نفسه غير مستقر في مكان واحد وأنه سيغادر المكان الذي يقيم فيه في أي لحظة ، ويؤكد هذا الرأي حمدان خوجة في وصفه لسكان هذه المناطق حيث يقول " ينقسم سكان الأماكن المنخفضة أو السهول إلى قسمين : أهل الصحراء الرملية وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع ، والجميع من أصل عربي ويتكلمون اللغة العربية ، مهنتهم كلها فلاحة ، ومسكنهم تحت الخيام المصنوعة من الوبر ، ليس

لهم مكان مستقر ، ينزلون حيث يجدون المرعى لماشيئهم...⁶ ، وعلى هذا فإن عدم وجود أي مدن وقصور قديمة بالمنطقة أمر طبيعي ومنطقي جدا بالنظر لهاته المعطيات .

ومع ذلك بقي أن نورد ملاحظة هامة هنا وهي أن روبرو أشار في المقال السابق كما قلنا إلى وجود أطلال الكثير من القصور المنتشرة هنا وهناك لكنه لم يحدد تاريخ بناء هذه القصور بالضبط وإن كان قد أشار إلى أن بعضها حديث النشأة ، ورجح أنها من بناء أهالي المنطقة سواء أولاد نايل أو الصحاري ، وذكر أن المنطقة الممتدة من حجر الملح إلى الجلفة هي التي تضم أكبر عدد من هذه القصور القديمة ، كما ذكر أن بعضها تحمل أسماء تبدو كأنها ذات أصول بربرية كما وصفها الكاتب مثل تيممغت⁷ ، لكن هذا النوع من صيغ الكلمات التي تبدأ بحرف التاء بهذا الوزن كان موجودا بالفعل في اللغة الفينيقية والبنونية⁸ ، ولنتقل الآن للحديث عن عمران منطقة الجلفة من خلال تتبع من خلال رحلات الحج المغربية وهي بالأساس رحلة العياشي خلال القرن 17 ، ورحلات كل من الدرعي ، الشرقي ، الحضيكي والناصري خلال القرن 18 .

3. الجلفة في رحلات الحج المغربية :

لدينا هنا خمس رحلات حجية مغربية ورد بها ذكرٌ ووصفٌ لبعض قصور منطقة الجلفة ، واحدة في منتصف القرن 17 م ، والأربع الباقية تتوزع من بداية القرن 18 م إلى نهايته .

1.3. الجلفة في رحلة العياشي :

نبدأ برحلة أبي سالم العياشي التي تمت في الفترة 1661 إلى 1663 ، وقد ورد عنده ذكر بلدين بمنطقة الجلفة في طريق عودته وهما عبد المجيد ودمد ، فالنسبة للأولى ذكر مانصه " ... وجئنا إلى عبد المجيد ضحى ونزلنا ، وفي الغد نزلنا ظهرا أيضا قبل العوينة ..."⁹ ، أما دمد فذكرها في قوله " ... وكان في الركب أعراب سعاة من دمك/د/ يتكفون الناس ..."¹⁰ ، والحقيقة أن العياشي ذكر هذين الموضعين لكنه لم يصف أيًا منهما ، وإذا كان بالنسبة للثانية دمد -التي ضبطها المحقق خطأ دمك- معذورا لحد ما لأنه لم ينزل بها ولم يزرها حسب ما يفهم من كلامه ، فإنه ليس معذورا بالنسبة للأولى عبد المجيد لأنه نزلها ، إلا إن كان عديم بها ما يستحق الوصف ، فربما كانت عبد المجيد آنذاك اسم

موضع فقط وليس بلدة ، وهو احتمال بعيد قليلا بالنظر لصيغة الكلام التي توحي بأنها بلدة معروفة قليلا على الأقل ، وبالعودة إلى مصادر أخرى بعده سنجد أنها كانت محطة معروفة جدا بالنسبة للحجاج ، لأنها كانت آخر نقطة أهلة قبل مفازة عظيمة وصولا إلى سيدي خالد ، ولذلك كان الركب يتزودون بها جيدا بالماء والمؤن .

2.3. الجلفة في رحلة الدرعي :

وقد كانت رحلة الدرعي في مطلع القرن الثامن عشر وذكر فيها كلا من دمد وعبد المجيد بالإضافة إلى البرج¹¹ ، القبران¹² وعمورة¹³ ، بالنسبة لدمد فقد ذكرها ذهابا وإيابا ، فبالنسبة للذهاب قال "ونزلنا دمت" ، قرية على سفحة الجبل على يمين الذاهب مشرقا على واد يسيل ماء ، ذات أشجار وأنواع من الفواكه عصرا ، وخرج أهلها مع إمامهم سيدي محمد بن مسعود ، وفرحوا¹⁴ ، ثم ذكرها مجددا في الإياب "ثم ظعنا منه ونزلنا دمت قبل نصف النهار وبتنا به للإراحة الإبل وتعاهد أخفافها لما عسى أن يحل بها من النقب فتتعل ، وتلقانا أهل البلد بالفرح والسرور ... وسوقوا الناس بما أمكنهم وبأيديهم من الشياه والسمن والشعير"¹⁵ ، ويُفهم من كلام الدرعي أن دمد كانت بلدة على قدر لا بأس به من العمران ، وأن أهلها يشتغلون بالزراعة وتربية المواشي والأنعام ، ويتاجرون بها مع المسافرين أيضا من الحجاج وغيرهم ، وكلمة "إمامهم" تدل أيضا أنه ربما كان لديهم مسجد للصلاة .

أما الموضع الثاني الذي ذكره الدرعي فهو البرج ، وقد ذكره ذهابا وإيابا أيضا ، فبالنسبة للذهاب قال "ثم ظعنا وبلغنا البرج وسقى الناس واستقوا ، وسرنا وكلّ بعير لأولاد الحاج مبارك ، وودعته عند رجل من أولاد بن حرز الله اسمه سيدي محمد بن عيسى بن يحيى بن حرز الله ، وهو يقرأ القرآن"¹⁶ ، وفي الإياب قال "ونزلنا على عين تنبع في جرف عليها مزارع لأولاد جابر حرز الله زاوية من زوايا تلك البادية وهم ناس مقبلون على ما يعينهم ، عرفنا منهم جماعة متمسكين ، وحج معنا هذه الحجة واحد منهم واسمه سيدي الطيب بن عيسى رجل دين خير مقبل على شأنه ، بإزائها بناء على هيئة المسجد يسميه الحجاج البرج ..."¹⁷ ، ومما يستفاد من كلام الدرعي هنا أن موضع البرج كان يضم زاوية

ومسجدا أيضا ، وأن أهلها مشغولون بطلب العلم ، أما اليوم فالموضع خال تماما من أي عمران ، ولم يبق منه إلا الاسم .

وبعد ذلك ذكر عبد المجيد ذهابا وإيابا أيضا ، فقال ذهابا "وبلغنا عبد المجيد ضحاء ، ونزلنا عن دوابنا حتى سقيناها ومألأنا قربنا لمفازة وادي سيدي خالد" ¹⁸ أما إيابا فقال "وصلنا العصر على غدير بقرب من وادي عبد المجيد ، ونزلنا شرقي وادي عبد المجيد بأميال بعد العصر ... ثم طعنا ومررنا بعبد المجيد ضحى ، ولم يعرج عليه أحد لكون الله أغنى الناس بغدران باتوا عليها في مبيتهم" ¹⁹ ، ويفهم من كلام الدرعي أن عبد المجيد كانت نقطة توقف هامة للحجاج المغاربة للتزود بالماء قبل عبور مفازة سيدي خالد .

ثم ذكر في الأخير في الإياب كلا من عمورة والغيران " ... عمورة ، قرية على جبل حوالي القيروان [الغيران أو القيروان] بها فواكه متعددة ... ونزلنا للاستراحة شرقي الغيران ننتظر الركب ... ونزلنا وقت الظهيرة غربي الغيران بأميال على ربوة للصلاة" ²⁰ ، فهذه إذا أهم المواضع التي ذكرها الدرعي في رحلته ذهابا وإيابا .

3.3. الجلفة في رحلة محمد بن الطيب الشرقي :

أما محمد بن الطيب الشرقي الذي كانت بداية رحلته الحجية يوم الأربعاء 4 رجب 1139 هـ (25 فيفري 1727م) فقد ذكر كلا من دمد ، البرج وعبد المجيد ، بالنسبة للأولى فقد قال "وارتحلنا فوصلنا بعد ارتفاع النهار دمت وبعضهم يسميه دمد بالبدال بدل المثناة الفوقية ، وهي قرية على سفح جبال عن يمين الناهب مشرقا ، وفي أصل جبالها واد عظيم كثير الأشجار والفواكه والمياه ، كبير النقع لما شملته مسارحها من الأنعام والشيء" ²¹ ، ونلاحظ تطابق وصفه لدمد مع من سبقوه من حيث موقعها على سفح الجبل ووفرة مياهها وأشجارها .

أما البرج وعبد المجيد فقال عنهما "ولما توسطنا بين هاتيك الأطواد جلسنا هنيئة للاستراحة والوضوء من ذلك الواد ، ثم سرنا حتى وصلنا البرج ، ويقال عين البرج فبتنا به وطرف كل واحد من الحجاج نابه ، ومنه بتنا في أول عبد المجيد ، وهو مبدأ المفازة الحجارية التي طوقت بسخاب المشاق

والتعب من المسافرين كل جيد"²² ، وقد أعاد ذكر عبد المجيد في طريق الإياب فقال "ومنه وصلنا عبد المجيد بعد العصر ، بعد معاناة ما شاء الله من العناد والأصر ، فأخذ الناس يسبقون البهائم ويستقون قرب كل هائم ، وجلسنا فيه للاستراحة ، وملاؤنا بزيارة روضة الشيخ بن حرز الله -نفعنا الله به- الراحة ، وآذنت الشمس بالمغرب ، وأدبنا حوله صلاة المغرب"²³ ، ونلاحظ هنا أن الشرقي ذكر ضريح ولي صالح حسبه هو الشيخ بن حرز الله ، ونلاحظ أن هذا الاسم قد مرّ بنا عند الدرعي ، فقد ذكر أنه لقي الشيخ محمد بن عيسى بن يحيى بن حرز الله ، فرما يكون هو نفسه وبني على قبره ضريح بعد وفاته ، أو يكون أحد أسلافه ، لكن الدرعي ذكر أنه لقيه بالبرج وليس عبد المجيد .

ثم ذكر الشرقي عمورة في الأخير في طريق عودته وأعاد معها ذكر البرج ودمد فقال "وظعنا يوم الثلاثاء الخامس عشر من شوال ، فمررنا صباحا بوادي عمورة وريّضنا بوادي المأصل ، وهو واد نواحيه بأشجار البطم العظيمة معمورة ، وصلينا الظهر بعين البرج ، وكان لسقي البهائم فيها صباح وهرج ، وصلينا فيها الظهر ، وسرنا إلى وادي دمت ويقال له وادي الطرفاء ، فصلينا العصر وبتنا في دمت ، وجاء أعراجه للركب بالسمن الكثير واللبن والغنم ، فكان ذلك بأجنس ثمن"²⁴ .

4.3. الجلفة في رحلة محمد بن أحمد الحضيكي :

بالنسبة للحضيكي في رحلته الحجية التي كانت سنة 1739 فإنه لم يزودنا بالكثير عن وصف المنطقة ، ولم يذكر سوى عبد المجيد في كلام عابر فقال "... ثم بعد يومين أو ثلاثة نزلنا ماء بواد في حد مسافة وعرة تعرف بعبد المجيد"²⁵ ، ويفهم من كلامه صراحة هنا أن عبد المجيد كان اسم موضع وعرة وليس بلدة أو قرية .

5.3. الجلفة في رحلة محمد بن عبد السلام الناصري :

أما الناصري فقد مرّ بالمنطقة أيضا في رحلته الحجية سنة 1782 وذكر بعض القرى والبلدات والمواقع ، وما ذكره "وبتنا بواد التتلا"²⁶ [أنثيلة] وماؤه جارٍ وليس بذلك ، ثم منه مررنا بواد الحميضة وماؤه عذب جارٍ عليه غابة الطرفاء وبعض حرث ، وعليه قرية دمت دويرات بأصل جبل عن يمينك

وأنت مشرف وبعض حرث ونخلات وبعض الأشجار ... وبعدها عيون سلمانة²⁷ ، عذبة باردة إلى النهاية ، ثم بتنا بالحواجب²⁸ وبها عدة من عيون سنجاف ، والبرج وعيون السلطان ، وماء البرج أحسنها²⁹ ، و ذكر أماكن أخرى في موضع آخر حيث يقول "ثم ارتحلنا مارين بعدما انتصف النهار بأودية القيروان"³⁰ [كذا] وبها بئر عذبة قليلة الماء ، تاركين قرية على رأس الجبل عامرة (عمورة)³¹ عن يسارك وأنت مشرق ، وسوقنا أهلها بالاحتاج ، ثم بتنا بعبد المجيد ومأوه جار لا بأس به ، وبه قبور الأعراب وسطها رجل صالح اسمه سيدي شارف عبد المجيد يسمى هذا المكان باسمه فقال الناس : عبد المجيد ، وعن يسار القبور مكان منخفض تجتمع فيه سيول الأمطار لا يفارقه ماء المطر غالبا حتى زمن المصيف ، وجدناه ذهابا وإيابا ممتلئا "³² .

ومما يلاحظ هنا أن الناصري ذكر لنا أسماء عدة قرى وبلدات وأماكن أكثر ممن سبقوه وهي : أنثيلة ، دمد ، سلمانة ، الحواجب ، سنجاف ، البرج ، عيون السلطان ، القيروان ، عمورة وعبد المجيد ، لكن يلاحظ أيضا أنه لم يقدم وصفا أو معلومات دقيقة عن هذه الأماكن عدا معلومات عامة يتعلق أغلبها بوصف منابع الماء ، لكنه أفادنا بمعلومة هامة عن عبد المجيد ، وهي أن بها قبرا لرجل صالح يدعى سيدي شارف عبد المجيد ، وأن اسم المكان مأخوذ منه .

وعموما فإننا نلاحظ أن رحلات الحج المغربية خلال القرن 18 قد زودتنا بمعلومات معتبرة تخص وصف منطقة الجلفة وبعض قصورها وبلداتها ، لكن هذه المعلومات ليست دقيقة جدا كما أنها ليست شاملة ، فأغلبها تتضمن المعلومات التي تم قوافل الحجيج مثل أماكن تواجد الماء والتزود بالمؤن ووصف الطرق والمسالك ، وغاب فيها وصف العمران والعمارة والمرافق العمومية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد أيضا مشكلة تطرح في رحلات الحج وهي أن القوافل كانت تمر بطرق محددة وتنزل بأماكن محددة أكثرها في الجنوب والجنوب الشرقي لمنطقة الجلفة كما رأينا ، ولذلك غاب عنها وصف المدن والقصور الأخرى الموجودة بالمنطقة غربا وشمالا .

4. الجلفة في رحلات أخرى غير حجية خلال القرن 18 :

لدينا رحلتان أخريان خلال القرن 18 ورد بهما ذكرٌ ووصفٌ لبعض القصور بمنطقة الجلفة ، الأولى في النصف الأول من هذا القرن وهي رحلة الإنجليزي توماس شو ، والثانية في آخره وهي رحلة محمد الكبير³³ باي الغرب الجزائري التي حرَّرها ودوّن تفاصيلها كاتبه أحمد بن هطّال .

1.4. رحلة توماس شو (Thomas Shaw) :

لقد زار هذا الرحالة الإنجليزي الجزائر في الثلث الأول تقريبا من القرن الثامن عشر وعاش بها ما يقرب من 12 سنة (1720 - 1732) فتنقّل بين أقاليمها ودوّن ملاحظات هامة عن كل منطقة زارها ، ولدى وصوله إلى منطقة الجلفة تعرّض لوصف بعض التجمعات السكانية في الجهات الجنوبية الشرقية منها ، لكنها تبدو من خلال وصفه صغيرة وقليلة الأهمية منها فيض البطمة³⁴ التي قال أنها تقع شرق جبل زكار بحوالي 6 فراسخ ، وشمالا على بعد 7 فراسخ تقع ضاية البطم³⁵ ، وقد أكّد شو أن هذين المركزين هما أكثر محطتين يتردد عليهما بنو مزاب وباقي سكان الصحراء عند مسيرهم إلى الجزائر العاصمة ، ويمكن أن نستنتج من كلام شو هنا أمرين ، الأول أن هذين المركزين على درجة لا بأس بها من العمران وأنهما ربما يتوفران على بعض المرافق العمومية مثل الفنادق والحمامات ما جعلهما محطة للتجار والمسافرين³⁶ ، والثاني أن هناك مراكز عمرانية أخرى بالمنطقة لكنها ربما أقل أهمية ، تدل على ذلك صيغة التفضيل التي استخدمها الكاتب ، وهذا ما يؤكده بعد ذلك حيث يذكر مراكز أخرى مثل القاهرة³⁷ التي قال أن بها آثار بنايات قديمة كما أنها مشهورة بنخيلها وأشجار التين والمشمش ، أيضا قمر³⁸ وعمورة التي تقعان جنوب فيض البطمة بنحو 6 فراسخ واللّتان وصفهما بأتهما (دشرتان) " Gumra and Amoura two Dash(k)ras " ، وإلى الجنوب الغربي منهما توجد دمد (دشرة)³⁹ .

2.4. رحلة الباي محمد الكبير :

كانت انطلاقا هذه الرحلة في 9 ربيع الأول سنة 1199 هـ (جانفي 1785م) ودامت حوالي خمسين يوما ما بين الذهاب والإياب ، وقد قادت صاحبها باي الغرب الجزائري محمد الكبير إلى عين ماضي والأغواط .

وإذا كان شو قد وصف الأجزاء الجنوبية الشرقية من الجلفة في النصف الأول من القرن 18 ، فإن ابن هطال⁴⁰ كاتب الباي محمد الكبير قد وصف بعض الأجزاء الغربية منها في نهاية هذا القرن ، ومما جاء في رحلته : " وجدّ في سيره - يقصد الباي محمد - حتى نزل الدبداب ... وهذا الموضع هو رأس وادي القصب وكما يسمى الدبداب يقال له أبو شكوة أيضا والكرط في جهته الشرقية على نحو ميلين وفوقه حاس(ي) الحمار على نحو ثلاثة أميال ، والجبل الذي في قبلته يسمى الأخضر وفي طرف الأخضر من جهة الشرق قرية تسمى الشارف⁴¹ ، وحيث نزل هذا الموضع ذكرت له مدينة وهذه المدينة تسمى زينة⁴² قرية من الدبداب بنحو أربعة سواتع ، وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد و أهلها أصحاب قوة وعدة وعزة ، وقد ذكروا له أن باي التيطري نزل عليها فطردوه وقتلوا له رجلين ... " 43 .

إذا فإن المركزين العمرانيين اللذان أشار إليهما ابن هطال هما الشارف وزينة ، فبالنسبة للأولى الشارف فإنه لم يزودنا بأي وصف أو معلومات هامة عنها عدا أنها قرية ، أما الثانية وهي زينة فقد وصفها بأنها مدينة ، وقد ذكر ابن هطال حادثة وقعت بين الباي وأهل هذه المدينة حيث قال " ... وقد ذكروا له أن باي تيطري نزل عليها فطردوه وقتلوا له رجلين وذهب مذموما مدحورا ، فلما سمع كلامهم على هذا الوجه اشتد حرصه عليها وأراد النزول بقربها ... فلما رآه أهل تلك القرية علموا أنهم لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته فخرجوا منها بأجمعهم ، ولم يأخذوا شيئا من أمتعتهم وقوتهم وتركوها خاوية على عروشها أسيرة في يد ممقوتها ، فدخلها من غير حصار عليها ولا قتال ، فانتهبت جميع ما فيها من القماش والغرائر والسمن وغير ذلك مما ترغب فيه النفوس ، وقد وجد فيها من القمح والشعير ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى ، فحملت منه الناس شيئا كثيرا " 44 ، فهذا ملخص ما جرى بين الباي وأهل مدينة زينة ، ويفهم من كلام ابن هطال أن زينة كانت مدينة كبيرة وأهلها مياسير ، كما يدل على أن زينة كانت أكبر وأهم بكثير من الشارف التي مرّ عليها مرور الكرام ، كما أنه نعتها بالقرية في حين سمى زينة مدينة ، ولكن للأسف فإن الكاتب لم يصف لنا عمران المدينتين كما لم يصف كل المدن التي مر بها أثناء هذه الحملة .

وهناك ملاحظة حول كلام ابن هطال عن مدينة زينة ، وهو أنه حمل جملة من التناقضات ، فهو يقول في البداية " ... وهي لبعض الأعراب " كنوع من التحقير لها ولأهلها ، وبعدها بقليل يقول " وأهلها أصحاب قوّة وعدّة وعزّة... " فيصفهم بالقوة والشجاعة وأنهم متمردون على البايك ويرفضون الانصياع لباي التيطري ، ثم يعود ويقول لاحقا " ... فلما رآه أهل تلك القرية علموا أنهم لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته فخرجوا منها بأجمعهم " ، كأنه يصفهم بالجبن والتخاذل ، كما أنه وصف زينة في البداية بالمدينة ثم عاد مجددا ووصفها بالقرية ، وبالجملية فإن هذه التناقضات في كلام ابن هطال عن المنطقة تجعلنا نُشكك في دقة معلوماته وموضوعيته ، خاصة وأن مبالغته في مدح الباي والثناء عليه والتصغير من شأنه خصومه أو مناوئيه كانت واضحة في أغلب صفحات كتابه .

وهناك سؤال يمكن أن يطرح الآن هو كيف لم يشر شو إلى هاتين المدينتين خاصة زينة ، والجواب ربما هو أن شو لم يصل إلى هذه المناطق واكتفى بعد أن وصل إلى الأغواط وعين ماضي بالقول بأن الجهة الغربية تضم المدن الأكثر أهمية في المنطقة ، كما اكتفى ابن هطال بوصف الأجزاء الغربية ولم يمر إلى الجهة الشرقية لأن رحلة الباي توقفت عند الأغواط .

5. خاتمة :

وعموما فإننا نلاحظ أن رحلات الحج المغربية خلال القرنين 17-18 قد زودتنا بمعلومات معتبرة تخص وصف منطقة الجلفة وبعض قصورها وبلداتها بالإضافة إلى نمط معيشة السكان وأنشطتهم الاقتصادية ، لكن هذه المعلومات ليست دقيقة جدا كما أنها ليست شاملة ، فأغلبها تتضمن المعلومات التي تم قوافل الحجيج فقط مثل أماكن تواجد الماء والتزود بالمؤن ووصف الطرق والمسالك ، وغاب فيها وصف العمران والعمارة والمرافق العمومية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، نجد أيضا مشكلة تطرح في رحلات الحج هذه وهي أن قوافلها كانت تمر بطرق محددة وتنزل بأماكن معينة أكثرها في الجنوب والجنوب الشرقي لمنطقة الجلفة كما رأينا ، ولذلك غاب عنها وصف المدن والقصور الأخرى الموجودة بالمنطقة غربا وشمالا ، ومع ذلك فقد لاحظنا أن رحلتي كل من الإنجليزي شو والباي محمد الكبير قد عوضتا قليلا هذا النقص من خلال ذكر مناطق أخرى شمالا وغربا كالشارف والإدرسية.

6. قائمة المراجع :

- أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، الرحلة الناصرية ، ط 1 ، تحقيق عبد الحفيظ ملوكي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت-لبنان ، دار السويدية للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 2011 .
- أحمد بن هطال ، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1969 .
- حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، ترجمة وتعليق محمد العربي الزبيري ، منشورات ANEP ، الجزائر ، 2005 .
- عبد الله بن محمد العياشي أبو سالم ، الرحلة العياشية ، تحقيق وتقديم سعيد الفاضل وسليمان القرشي ، دار السويدية للنشر والتوزيع ، الإمارات العربية المتحدة ، د.ط ، 2006 .
- محمد بن أحمد أبو عبد الله الحضيكي السوسي ، الرحلة الحجازية ، ضبط وتعليق عبد العالي المدربر ، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث ، المغرب ، د.ط ، 2011 .
- محمد بن الطيب الشرقي الفاسي ، الرحلة الحجازية ، ط 1 ، تحقيق نور الدين شوبد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت-لبنان ، دار السويدية للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 2014 .
- محمد بن عبد السلام الناصري التمكروقي ، الرحلة الناصرية الكبرى ، ج 1 ، ط 1 ، تحقيق وتقديم المهدي الغالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت-لبنان ، دار السويدية للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 2018 .
- Chrles.R Krahmalkov, **A phoenician-Punic grammar** , Brill Edition , Leiden ; Bostn ; Koln , 2001 .
- P.Huard et L.Allard , **"les figurations rupestres de la région de Djelfa Sud algérois"** , Libyca , tome 24 , Alger , 1976 .
- Reboud , **"Notes archéologiques sur les ruines de Djelfa"** , revue africaine , N° 01 , Volume 01 , Alger , 1856 .

- Thomas Shaw , **Travels or observations relating to several parts of Barbary and the Levant** , 2nd edition , A.Millard and W.Sandby , London , 1757 .

7. ملاحق :

خريطة تظهر قصور وبلدات منطقة الجلفة المذكورة في المقال

8. الهوامش :

¹ تمثل الجلفة حاليا إحدى ولايات القطر الجزائري وتحمل الرقم 17 ، وتضم 12 دائرة و36 بلدية ، وقد تم مؤخرا استحداث ولايتين منتدبتين ضمن نطاقها هما عين وسارة وتضم أربع دوائر وعشر بلديات ، ومسعد وتضم دائرتين وثلاثين بلديات ، وبعض النظر عن هذا التقسيم الجديد فإن ولاية الجلفة تقع في منطقة متوسطة من الجزائر وتحدها من جهاتها الأربع سبع ولايات هي : المديية ، مسيلة ، بسكرة ، ورقلة ، غرداية ، الأغواط ، تيارت وتيسمسيلت ، وتترتب على مساحة أكثر من 32 ألف كم² .

P.Huard et L.Allard , "les figurations rupestres de la région de Djelfa" ²

Sud algérois" , Libyca , tome 24 , Alger , 1976 , p 68 .

Reboud , "Notes archéologiques sur les ruines de Djelfa" , revue ³ africaine , N° 01 , Volume 01 , Alger , 1856 , p 26 .

⁴ عبد المجيد حاليا هي مدينة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي لعاصمة الولاية الجلفة وتبعد عنها بحوالي 90 كم
⁵ دمد حاليا هي جزء من الحيز العمراني لمدينة مسعد ، وتبعد بحوالي 03 كم عن وسط المدينة إلى الشرق ، وهي تحمل هذا الاسم منذ العهد الروماني ولا تزال بها بعض الآثار من تلك الحقبة .

⁶ حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، ترجمة وتعليق محمد العربي الزبيري ، منشورات ANEP ، الجزائر ، 2005 ، ص 31 .

⁷ . 31 , 30 , p op.cit , Reboud ، ويبدو أن الكاتب خصّ هنا أولاد نابل والصحاري بالذكر لكثرة أعدادهم رغم أن هناك عروشا أخرى قاطنة بالمنطقة ومندمجة معهم على غرار العبازيز ، أولاد بن علي ...
⁸ لقد أشارت بعض الدراسات اللغوية إلى أنّ هذا النوع من الصيغ على وزن تفعيلت وتفعليت وتيفعال وغيرها من الكلمات التي تبدأ بحرف التاء خاصة أسماء الأماكن تكون ذات أصول لغوية فينيقية ، حيث توجد بها خاصية تقديم التاء في بداية الكلمة ، والتي تكون أداة للتعريف غالبا مع الأسماء المعرفة كما تدخل على المضاف إليه وتعمل كأداة نصب أيضا حيث تكون في بداية المفعول به . أنظر Chrles.R Krahmalkov , **A phoenician-Punic grammar** , Brill Edition , Leiden ; Bostn ; Koln , 2001 , pp 281-285 , p 86 .

⁹ العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد ، الرحلة العياشية ، مج2 ، تحقيق وتقديم سعيد الفاضل وسليمان القرشي ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، الإمارات العربية المتحدة ، 2006 ، ص 545 .
¹⁰ نفسه ، ص 546 .

¹¹ البرج أو عين البرج ويسمى حاليا برج المهاش وهو اسم موضع به عيون ماء ، ويقع شرق مدينة مسعد بحوالي 20 كم ، ويتبع إداريا بلدية سلمانة .

¹² القبران (الغيران) ، اسم موضع يقع شرق مدينة مسعد بحوالي 25 كم .

- ¹³ **عمورة** حاليا هي بلدية ومدينة صغيرة تقع على رأس جبل جنوب شرقي مدينة الجلفة بحوالي 80 كم ، وهي معروفة بأشجارها المثمرة كالتين ، المشمش ، الرمان ... ، كما تعرف أيضا بمناظرها الطبيعية الجميلة خاصة ما يعرف بالشلالات .
- ¹⁴ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، **الرحلة الناصرية** ، ط 1 ، تحقيق عبد الحفيظ ملوكي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت-لبنان ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 2011 ، ص 133.
- ¹⁵ نفسه ، ص 716 .
- ¹⁶ نفسه ، ص 133 .
- ¹⁷ نفسه ، ص 716 .
- ¹⁸ نفسه ، ص 134 .
- ¹⁹ نفسه ، ص 715 .
- ²⁰ نفسه .
- ²¹ محمد بن الطيب الشرقي الفاسي ، **الرحلة الحجازية** ، ط 1 ، تحقيق نور الدين شوبد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت-لبنان ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 2014 ، ص 220 ، 221.
- ²² نفسه ، ص 221 .
- ²³ نفسه ، ص 576 .
- ²⁴ نفسه ، ص 576 ، 577 .
- ²⁵ أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي ، **الرحلة الحجازية** ، ضبط وتعليق عبد العالي المدبر ، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث ، المغرب ، 2011 ، ص 85 .
- ²⁶ أنثيلة حاليا هي قرية صغيرة تقع جنوب غربي مدينة مسعد بحوالي 35 كم وتتبع إداريا بلدية تعظمية .
- ²⁷ سلمانة حاليا هي مدينة صغيرة ومقر بلدية تتبع إداريا دائرة مسعد ، وتقع شرقيها بحوالي 13 كم .
- ²⁸ **الحواجب** حاليا هي منطقة فلاحية قريبة من قرية البرج وتتبع إداريا بلدية سلمانة .

²⁹ محمد بن عبد السلام الناصري التمكنوتي ، الرحلة الناصرية الكبرى ، ج 1 ، ط 1 ، تحقيق وتقديم المهدي الغالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت-لبنان ، دار السويد للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، 2018 ، ص 215 .

³⁰ القيروان هكذا ذكرها المؤلف ، والصحيح أنها القيروان أي الغيران ، والمقصود بها جمع غار كما ذكرنا قبل قليل .

³¹ الظاهر أنه يقصد عمورة ونطقها خطأ عامرة ، مع العلم أنه توجد حاليا بلدة بمنطقة الجلفة اسمها عامرة لكنها لا تقع في المكان المذكور .

³² الناصري ، مصدر سابق ، ص 215 ، 216 .

³³ محمد الكبير هو محمد بن عثمان الكردي أو محمد الكبير كما كان يعرف عند الجزائريين ، ولد بمليانة التي كان والده عثمان الكردي قائدا عليها ، وهناك من قدّر عمره سنة 1779 بأربعين أو خمس وأربعين سنة ، وعلى ذلك قد يكون مولده ما بين 1734 و 1739 ، حكم بايلك الغرب في الفترة الممتدة من 20 جمادى الثانية 1193 إلى 25 جمادى الثانية 1212 (جوان 1779-ديسمبر 1797) وكان من أهم إنجازاته تحرير وهران من الإسيان سنة 1792 ، بالإضافة إلى اهتمامه الكبير بالحركة العلمية والعمرانية . أنظر: بن عتور بلبروات ، "البابي محمد الكبير باي وهران حياته وسيرته 1779-1797" ، مجلة عصور ، مجلد 2 ، عدد 1 ، وهران-الجزائر ، 2003 ، ص 151 .

³⁴ فيض البطمة حاليا هي مدينة متوسطة من حيث الكبر ، وهي بلدية ومقر دائرة في الوقت نفسه ، تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة الجلفة وتبعد عنها بحوالي 55 كم .

³⁵ هكذا ذكرها الكاتب وكتبها بالإنجليزية (Thyte) وبعد التفصي بالمنطقة وسؤال السكان لم نجد مكانا يعرف بهذا الاسم ، فلا ندري بالضبط هل أن المكان تغير اسمه ، أم أن الكاتب أخطأ في كتابة الكلمة .

³⁶ Thomas Shaw , **Travels or observations relating to several parts of Barbary and the Levant** , 2nd edition , A.Millard and W.Sandby , London , 1757 , p 41 .

³⁷ القاهرة حاليا تجمع عمراي صغير يتبع إداريا بلدية مسعد ويقع شرقيها بحوالي 8 كم ، وهي معروفة بمحاذيقها الجميلة ، خاصة شجر المشمش .

- ³⁸ **قمرة** حاليا هي تجمع سكاني صغير يتبع إداريا بلدية عين الريش التابعة بدورها لولاية المسيلة ، وتقع جنوب الأولى بمسافة حوالي 40 كم ، وهي مشهورة بمناظرها الطبيعية السياحية البديعة التي تعد قبلة للسياح والزوار .
- ³⁹ . Shaw , op.cit , p 41
- ⁴⁰ هو أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن هطال التلمساني ، كاتب وأديب من أهالي تلمسان شغل منصب كاتب ومستشار للباي محمد الكبير ورافقه في رحلته إلى الأغواط ، فدوّن تفاصيلها في رسالة صغيرة ، ثم شغل نفس المنصب بعد ذلك للباي مصطفى العجمي . توفي ابن هطال سنة 1219 هـ (1805) في معركة بين قوات البايك وابن الشريف الدرقاوي . راجع تقديم المحقق محمد بن عبد الكريم للرحلة .
- ⁴¹ **الشارف** حاليا بلدية ومقر دائرة أيضا تتبع إداريا ولاية الجلفة ، تقع غربي مدينة الجلفة وتبعد عنها بحوالي 50 كم .
- ⁴² **زينة** هو الاسم القديم لمدينة الإدريسية حاليا ، ولا تزال تعرف بهذا الاسم عند أهل المنطقة ، وهي بلدية ومقر دائرة تتبع إداريا ولاية الجلفة وتبعد عن عاصمتها بحوالي 100 كم .
- ⁴³ أحمد بن هطال ، **رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري** ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1969 ، ص 49 ، 50 .
- ⁴⁴ نفسه ، ص 50 ، 51 .